المركزية الأوروبية
وحشا متعدّد الرؤوس

د. وائل غالي

صار عالم الاقتصاد المصري، جلال أمين، في الفترة الأخيرة، لا يدري الجواب على السؤال : إلى أي مدى يعكس التغير الذي طرأ على موقفه من السينما الحديثة، "نضجا حقيقيا" في الفكر؟ إلى أيّ مدى يعكس التغير الذي طرأ على موقفه من السينما الحديثة، مجرد تقدمه في السن ؟إلى أيّ مدى يعكس التغير الذي طرأ على موقفه من السينما الحديثة، تقدما مجردا في السن ؟ هل نضج "نضجا حقيقيا" في الفكر أم تقدم في السن؟ يروي : "أجلس الآن أمام التليفزيون لأشاهد بعض الأفلام القديمة كسلامة في خير للريحانى أو ثلاثية ساتياجيت رايّ الهندية فأتأثر بهما تأثرا شديدا. وتكاد عيناي تذرفان الدموع أحيانا مثل ما كانت أمي تفعل وهى ترى أفلام أمينة رزق منذ نصف قرن. إنني أجد نفسي إذن على استعداد لان أغفر لهذه الأفلام ما قد يكون فيها من عاطفية زائدة في سبيل أشياء أخرى كثيرة أهمها أنها كانت تقول الحق، وبدرجة لا بأس بها من الفصاحة. لا شك في أن في الأمر درجة عالية من الحنين للماضي ومحاولة يائسة لاستعادة الصبا والشباب ، ولكن في الأمر أيضا فيما أظن تحررا من الانهيار الوقتي بالتكنيك وترتيبا صحيحا للأولويات."

كانت الكتابة الاقتصادية العلمية، قبل جيل جلال أمين، تعاني من ندرة الاقتصاديين أنفسهم وندرة البيانات وندرة المعلومات الاقتصادية. إن عدد المصريين الذين من الممكن تسميتهم باسم "الاقتصاديين" في بداية العقد الثاني من القرن العشرين، لم يكن ليتجاوز عدد أصابع اليدين. وفي نهاية الحرب العالمية الثانية، لم يكن عددهم ليتجاوز الأربعين أو الخمسين على الأكثر. وكان معظمهم يشتغل في وظائف عملية وليس في وظائف أكاديمية. وقد استمرت دراسة علم الاقتصاد في مصر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، تشكل جزءا من دراسة أشمل هي دراسة القانون أو إدارة الأعمال. ولم يكن من الممكن للمرء أن يصبح

اقتصاديا إلا إذا تابع دراسته في خارج مصر ولكن البعثات الحكومية كانت محدودة تماما في تلك الفترة. ولم تكن دراسة الاقتصاد لتحظى على أي حال بأولية عالية لا في نظر الدولة ولا في نظر الطلاب المصريين أنفسهم. ولكن حتى لو كانت هناك وفرة من الاقتصاديين المصريين في ذلك الوقت فإنهم ما كانوا ليجدوا من البيانات الاقتصادية ما يحفزهم إلى البحث والتدقيق. فجمع وتصنيف ما يسمى الآن بالحسابات القومية لم يكن قد أصبح من الحاجات الملحة كما يعتبر الآن بل إنه لم يصبح كذلك حتى في البلاد الصناعية إلا بعد نشر كتاب **كينز** الشهير "**النظرية العامة** " في العام 1936، وبعد أن زاد الطلب على هذه البيانات استجابة لمتطلبات الحرب العالمية الثانية. والراجح أن هذه الحرب أيضا ، وما اقترن بها في منطقتنا من إنشاء " **مركز تموين الشرق الأوسط** " الذي قام لمواجهة متطلبات هذه الحرب هو الذي حفز إلى اتخاذ أولى الخطوات الجادة لجمع وتحليل الحسابات القومية في مصر. كان أهم هذه الجهود هو ما قام به خلال السنتين الأخيرتين من سنوات الحرب باحث شاب هو محمود أنيس. قام محمود أنيس بدراسة رائدة نشرت في اللغة الإنجليزية بعنوان " دراسة في الدخل القومي المصري " (تم نشرها كعدد خاص من مجلة "مصر المعاصرة") وهى مجلة الجمعية.

ثم ظهر الجيل الأكاديمي من الباحثين الاقتصاديين المصريين الذين جمعوا بين العلم والعمل، وبين الانتماء الوطني والقومي، وبين تبني المنهجيات الغربية الحديثة. ومن المعروف أن جلال أمين هو صاحب "مقدمة" إلى الفكر الذي كان ينتسب إلى فكر ماركس، مع دراسة لتطبيقه في مصر (1966). وعرض للفكر الذي كان ينتسب إلى فكر ماركس، وحلل. ثم انتقد مبادئ الفكر الذي كان ينتسب إلى فكر ماركس، في الفلسفة والتاريخ والاقتصاد (1970)، من قبل سقوط الاتحاد السوفيتي، بنحو ربع قرن تقريبا. لذلك لم تقع التحولات في فكر العالم في صورة مفاجئة، كما قد يتصور المرء، إنما التحولات تمت على أرضية واحدة هي أرضية النقد الجذري، في القرن العشرين، لليبرالية، وقد توسل أول الأمر بالنقد الجذري الذي كان ينتسب إلى ماركس، ثم انتقل إلى النقد الجذري الأصولي، في الوقت نفسه الذي ألف فيه كرم محمد زهدي، وناجح إبراهيم عبد الله، وعلي محمد علي الشريف، وأسامة إبراهيم حافظ، وحمدي عبد الرحمن عبد العظيم، وفؤاد محمد الدواليبي، وعاصم عبد الماجد محمد، ومحمد عصام الدين در بالة، وأعدوا "للمراجعات الفقهية للجماعة الإسلامية" في "نهر الذكريات"، وأكد محمد عمارة، المفكر الأصولي العائد من مراجعة العقلانية، في ندوة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، في إطار موسمه الثقافي في خريف 2003، أن تغييب العقل هو أخطر الأمراض التي أصابت الأمة في العصر الحاضر، مؤسسا لمراجعة فكرية لمنهجه الذي استقر عليه منذ نحو ربع قرن من الزمان. تحولات ضمن تحولات. مراجعات من بعد المراجعات.

لكن جلال أمين، في الحالين، في حال الشك، وحال اليقين، ظل وفيا لنقد العقلانية الحديثة، ورفض الفردية الليبرالية، ونفي الإجراءات الليبرالية، ومراجعه التصور الليبرالي للفلسفة السياسية والاقتصادية جميعا. فبحث جلال أمين، من جهة اليمين الحديث، في "التنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية ؟ خرافات شائعة عن التخلف والتنمية ، وعن الرخاء والرفاهية" (1983- 1995). وفي اللغة الإنجليزية، كان لجلال أمين، المؤلفات الاقتصادية المعروفة. ترجم بعضها إلى اللغة اليابانية في العام 1976 . وحاز على جائزة الدولة التشجيعية في العام 1976 . وترجم، من جهة ثالثة، "التخطيط المركزي" لجان تنبرجن (1966)، و"مقالات مختارة في التنمية والتخطيط الاقتصادي (1968)، و"أنماط من التجارة الدولية والتنمية الاقتصادية ، **لراجنار نيركسه** (1969)، و"الشمال - الجنوب : برنامج من أجل البقاء ، تقرير اللجنة المستقبلية المشكلة لبحث قضايا التنمية، والدولة، برناسة ويلي برانت، (1981)، وغيرها من الترجمات.

وحين حلل جلال أمين أزمة الاقتصاد والمجتمع المصري، خلال نصف القرن الماضي، أحال الى تغير وضع الطبقات النسبي في المجتمع أو ما سماه بالحراك الاجتماعي Social mobility، بعد أن حلل علم الاجتماع الغربي، الذي كان ينتسب إلى ماركس بعامة، الطبقات. "فالحقيقة، كما يقول جلال أمين، هى أن لكل فرد مشروعه ولكل طبقة مشروعها ويندر أن يفتقر الفرد أو الطبقة إلى مشروع للصعود والترقى. والمجتمع بأسره يتحدد مشروعه للترقي بمشروعات الطبقات المسيطرة أو الأكثر تأثيرا. فالشكوى إذن لا يجب أن تكون من افتقاد مشروع للنهضة بل من تغير مضمونه بتغير الطبقات المؤثرة إذ أصبح مشروع المجتمع المصري إذا جاز هذا التعبير، هو مشروع الطبقات المهمومة بالرقى المادي وتثبيت وضعها النسبي. والجديد في سبيل تنفيذ هذا المشروع تندثر المشروعات القديمة القائمة على الاعتزاز بالكرامة الوطنية والتضامن مع بقية العرب ومع قضية الفلسطينيين إذ لا يبدو أن في الوقت والجهد متسعا للانشغال بهذا وذاك".

مع أنه يقتبس التحليل الطبقي، يقول إن "مفهوم الفكر الذي كان ينتسب الى فكر ماركس "لا يزيد على أن يكون على حد تعبير أرنولد توينبى ، مجرد " صنف من أصناف الحضارة الغربية " فهذا النموذج الاشتراكي، في التحليل الأخير ، لا يشكك في نمط الحياة الغربية إلا من حيث عدالة التوزيع". ففي انتقال المرء من الحال الوحشية ROHIGKEIT التي كان عليها في الحالة الطبيعة، إلى الحالة الحضارية KULTURL/ANBAU يشكل كيانا طبقا لغاياته ووفقا لتنمية قواه الخاصة. ويرى جلال أمين أن ثورة يوليو كانت استكمالا للتغريب المصري الذي بداه محمد علي : "فقد تغير الأمر تغيرا كبيرا في الخمسينات والستينات فنتيجة لثورة 1952 وما اتخذته من إجراءات اقتصادية وما ترتب على هذه الإجراءات من تغيرات اجتماعية عميقة بما في ذلك ارتفاع درجة الحراك الاجتماعية وفتحها أبواب التعليم

على مصراعيها بالإضافة إلى ما حدث من توسع في التعليم في العقد السابق عليها أصبحت النسبة الغالبة من المتعلمين في الخمسينات والستينات ينتمون إلى طبقة اجتماعية " أقل استقرارا " بمعنى أنها كانت أقرب عهدا بالطبقات الدنيا (إذا قورنت بالجيل السابق من المتعلمين) ومن ثم أقل اطمئنانا إلى مركزها ، فضلا عن أنها بدأت تظهر درجة أقوى من التطلع إلى الصعود اجتماعيا نتيجة الفراغ الذى أحدثته الثورة في الدرجات العليا من السلم الاجتماعي. كان موقف هذه الطبقة من المتعلمين فيما أزعم أقل إجلالا للتراث (بما في ذلك اللغة القومية) من الجيل السابق من المتعلمين كما أن انبهارها بالغرب كان أشد تأثيرا على ثقتها بنفسها. قد يرجع ذلك إلى أن الثورة رفعت شعار النمو الاقتصادي والتقدم وتقدمت بخطوات سريعة نحو تحديث المجتمع على الرغم من كل ما يقال عن انغلاقها على نفسها وانكبابها على الذات وكان هذا التحديث بالضرورة يعنى مزيدا من التغريب نعم لقد اشتبكت الثورة في عراك مع الغرب، ولكنة كان **عراكا سياسيا، واقتصادياً** كما رأينا وليس عراكا ثقافيا أو حضاريا فضلا عن أن هذا الجيل من المتعلمين بحكم ما حققه من صعود اجتماعي قريب العهد كان من الطبيعي أن يكون أكثر انبهارا بالتفوق التكنولوجي للغرب من الجيل السابق عليه وبما تحققه التكنولوجيا الغربية من توفير الراحة وتخفيض الأعباء والمشقة المرتبطة بالعمل العضلي وقد انعكس كل هذا في موقف أقل ولاء للتراث بصفة عامة بما في ذلك اللغة العربية وأكثر استهانة بهذه اللغة."

اقتبس جلال أمين نظرية عالم الاجتماع ب. سوروكن P. SOROKIN وبخاصة قوله "إنه بينما تميل الطبقات الدنيا في الظروف الاجتماعية الثابتة نسبيا إلى تقليد الطبقات الأعلى منها في أنماط سلوكها ، فإنه في الظروف التي تتعرض فيها الطبقات العليا للانحدار والتدهور على درجات السلم الاجتماعي يحدث العكس ، حيث تأخذ الطبقات الهابطة في تقليد واقتباس أنماط سلوك الطبقات الأدنى منها واعتناق قيمها ولدى من الأسباب العقلية البحتة ما يرجح صحة هذا الاعتقاد ، كما أن هناك من ظواهر التحول الاجتماعي في مصر ما يؤيده. فهناك أولا الثقة بالنفس التي تكتسبها الطبقات الصاعدة بسبب صعودها نفسه ، والتي تدفعها إلى تأكيد صعودها وتقضى على الاستحياء القديم من التعبير عن نفسها ومواجهة الطبقات العليا بقيمها وعاداتها وأنماط سلوكها."

في ضوء المنهجية الغربية، يقول جلال أمين بالحراك الاجتماعي الذي ارتفع معدله على نحو لم تشهد مصر مثله في تاريخها الحديث. واستخلص جلال أمين " أنه اجتمعت مجموعة من العوامل طوال نصف القرن الماضي للعمل على صعود طبقات وشرائح اجتماعية كانت طوال النصف الأول من القرون تنتسب إلى الدرجات الدنيا في السلم الاجتماعي فارتفع مستوى دخلها إلى حد سمح لها بمناسبة الطبقات الوسطى والعليا في نمط معيشتها هذه العوامل هى التوسع في التعليم ونمو المؤسسة العسكرية والبيروقراطية

الحكومية ، ومشروعات التنمية الصناعية والزراعية والاتصال بالنشاط الأجنبي والهجرة والتضخم وفي نفس الوقت عملت مجموعة من المؤثرات على انحدار طبقات وشرائح اجتماعية كانت في أعلى السلم الاجتماعي تاركة مكانها لشرائح صاعدة من الطبقات الوسطى والدنيا ، من هذه المؤثرات قيام الثورة نفسها بإحلال العسكريين محل الأرستقراطية الزراعية والبورجوازية الكبيرة في الحكم ، وإحلال مؤسسات سياسية جديدة محل الأحزاب والمجالس السياسية التقليدية وإجراءات الإصلاح الزراعي والتأميم والحراسات، واتساع دور الحكومة والقطاع العام على حساب القطاع الخاص ، ثم ظاهرة التضخم مرة أخرى لم يكن هناك بد من أن يحدث هذا الانقلاب في البناء الطبقي للمجتمع المصري آثارا بعيدة الغور في السلوك الاقتصادي والاجتماعي وفي المناخ الثقافي والسياسي العام". مع ذلك ، أي مع أنه اعتمد اعتمادا تاما المنهجية الغربية في قراءة الواقع المصري في نصف القرن السابق، يرفض ما أسماه من بعد التيار القومي/الديني المعاصر باسم "التغريب". فقد ذاع، حسبما يقول، " تقليد عادات غربية بحت مقتبسة من الخارج ومناقضة تماما للتراث والعادات الموروثة." ولم تكتسب كلمة التراث TRADITION معناها العلمي المتداول إلاّ في مراحل قريبة العهد انطلقت من العقد الثالث من القرن العشرين. ولكنها كانت موجودة قبل ذلك التاريخ بقرون. وقد كانت تعنى "الميراث". والجدير بالملاحظة أننا لا نجد للتراث مادة محددة في معاجم اللغة. غير أنها تشتق من مادة ورث التي تدور مدلولاتها حول حصول المتأخر على نصيب مادي/ معنوي ممن سبقه. فالتراث ما يخلفه الرجل لورثته وأصل التاء الواو، أيّ الوُراث. من هنا يدور قلب الواو المتصدرة لهذه الكلمات تاء، لأنها أجلد من الواو وأقوى، ولا تتغير بتغير أحوال ما قبلها. والملفت للنظر أن التراث صار مع الوقت لفظا يشير إلى وجه من وجوه الماضي. واختلط التراث بالتاريخ مع أن التراث والتاريخ يمثلان واقعتين مختلفتين ومصطاحين اثنين. فإذا كان التاريخ هو الماضي في بعده التطوري فان التراث هو الماضي في بعده التطوري موصولا بالحاضر. ويقول جلال أمين ان :" النوع الأول يتكون من المنتصرين للتراث من باب رد الفعل للظاهرة التي أتكلم عنها ظاهرة التغريب والانفتاح بلا ضوابط على الحياة الغربية وميل الكثيرين إلى التنكر للتراث والاستهانة به ويضم هذا الفريق أفرادا كثيرين ممن لا يسمح لهم تكوينهم النفسي لسبب أو آخر بالتنكر لتراثهم على هذا النحو المهين والذليل ولكن هناك نوعا آخر من المنتصرين للتراث يتكون من شرائح اجتماعية فشلت في التغير." وفي ظل الحاجز الذي كان يفصل بين الطبقات قبل ثورة ١٩٥٢ انعكس ذلك "الاطمئنان النسبي في موقف معين من التراث وفي موقف معين من الغرب. كانت هذه الطبقة من المتعلمين تحترم تراثها بما في ذلك لغتهم القومية لانه لم يكن لديها سبب نفسى يدفعها للنفور منه والتنكر له كما أن موقفها من الغرب كان يتسم بقدر عال نسبيا من الثقة بالنفس . نعم كان

هناك انبهار بالغرب يرجع تاريخه إلى أول اتصال لنا بالغرب الحديث مع قدوم الحملة الفرنسية ، ولكن الانبهار أنواع ودرجات ، وكان انهيار هذه الطبقة بالغرب في ذلك الوقت لا يصل إلى درجة الانهيار النفسي والتسليم للغرب بالتفوق في كل شئ ، بما في ذلك اللغة والآداب كان هذا هو السبب الأساسي في نظري لتمتع اللغة العربية بمكانتها العالية (نسبيا) في ذلك الوقت إذا قورن بما حدث لها بعد ذلك". ويعتقد جلال أمين، من جهة أخرى، أن الابتكار النظري في علم ما يكاد أن يكون مستحيلا أو محصورا في أضيق انحدود إذا لم يكن المرء يفكر في هذا العلم بلغته الأم. وإذا صح ذلك فكيف نفسر أن أغلب العلم العربي الدقيق في الفترة فيما بين القرن التاسع الميلادي تقريبا والقرن السادس عشر الميلادي، قد صنعه علماء لم تكن اللغة العربية هي لغتهم الأم؟

لكن إذا كانت الحياة الاجتماعية كيانا معقدا قد تجتمع فيه المتناقضات، كما يذهب جلال أمين، هل تحليله لنصف القرن المصري الأخير، كيان معقد كذلك، يمكن أن يجتمع فيه اقتباسه لمنهج الحراك الاجتماعي الغربي ورفضه المطلق القومي/الديني للغرب؟ يجيب قائلا "إن الاتجاه نحو التغريب في المجتمع المصري اتجاه قديم وسابق بالطبع على القيام بالثورة بما لا يقل عن قرن ونصف ومنذ هذا التاريخ لم ينقطع تياره لحظة وإن تفاوت قوة وضعفا مع اختلاف شدة الاحتكاك بالغرب ومع اختلاف طموحات الطبقات المسيطرة على المجتمع المصري على أن شيئا واحدا على الأقل ظل ثابتا منذ بدأت حركة التغريب في بداية القرن الماضي وهو أن الاقتباس من الغرب كان دائما يستخدم كرمز للتميز الاجتماعي من جانب الطبقات الطامعة في هذا التميز والقادرة عليه. ومن ثم فقد كانت أكثر الطبقات خضوعا لحركة التغريب هى الطبقات الأعلى دخلا ليس فقط بحكم احتكاكها الأقوى بالغرب ولكن بحكم قدرتها الأكبر على اقتباس رموز الحياة الغربية سلعا كانت أوسلوكا أو معتقدات أو طرقا للتفكير وقد ظلت الطبقات الواقعة في أسفل السلم الاجتماعي حتى قيام ثورة ١٩٥٢ معزولة إلى حد كبير عن الاحتكاك بالغرب ومحرومة في نفس الوقت من القدرة على تقليده حتى لو تطلعت إليه ثم بدأت حركة التغريب تمتد إلى هذه الطبقات بالتدريج في الخمسينات والستينات مع ارتفاع دخولها وانتشار التعليم بين صفوفها وزيادة تعرضها لوسائل الإعلام الآخذة في الانتشار ومع نمو المؤسسة العسكرية وتحديث وسائل الإنتاج بارتفاع معدل التنمية منذ منتصف الخمسينات على أن امتداد حركه التغريب إلى اسفل لم يشهد في تاريخ المجتمع المصري معدلا كالذي شهده في السبعينات بسبب ازدياد معدل الحراك الاجتماعي نفسه. فمع استمرار انتشار التعليم في صفوف طبقات المجتمع الدنيا وامتداده إلى الأقاليم وارتفاع مستوى الدخل لدى شرائح واسعة من هذه الطبقات ، وهجرة أعداد غفيرة منها زاد احتكاكها بالغرب وزادت قدرتها على تقليده في الوقت نفسه." والذي يريد أن يزعمه جلال أمين الآن هو"أن هناك أسبابا قوية للاعتقاد بأن نسبة عالية من الأفراد المنتمين إلى هذه

الطبقة الوسطى الدنيا قد نما لديهم شعور متزايد القوة بالسخط على المجتمع بوجه عام وشعور بالإحباط وعدم الرضا عن النفس وشك عميق في قيمتهم الذاتية في نظر أنفسهم ونظر الغير.". ويضيف إن " هذه الشرائح الاجتماعية الدنيا من الطبقة المتوسطة ، لا تتمتع بالرضا عن النفس الذي تتمتع به الطبقات الجالسة على قمة الهرم الاجتماعي أو تلك الشرائح العليا من الطبقة الوسطى الفخورة بما حققته من صعود حديث والسعيدة بما حققته من نجاح سريع ولا تتمتع بشعور الطمأنينة والرضا الذى تشعر به الطبقات القابعة في أسفل السلم الاجتماعي لأنها لا تتطلع كثيرا إلى أعلي وتستمد رضاها عن نفسها من أشياء أخرى". من هنا نرى كيف تجتمع المتناقضات في فكر عالم الاقتصاد. اقتباس التحليل السوسيولوجى الغربي من جهة ورفض ما سماه باسم التغريب، من جهة أخرى : "إن من أسوأ ما تشترك فيه السنوات الأربعون التالية لثورة ١٩٥٢ يتمثل في تصوري في عجز القيادات السياسية الفكرية للنظام الجديد عن تقديم مشروع حضاري مستقل لتحقيق النهضة في مصر. فمع كل ما أعلنته ثورة يوليو من أنها قامت لتحرر مصر من الاستعمار وتقود كفاح الأمة العربية من أجل استقلالها ومع كل الشعارات التي رفعتها مما يحمل معنى السيادة الوطنية وسيطرة الأمة على قدراتها بل مع كل ما حققته من نجاح في بعض هذه المجالات لم يستطع قادة الثورة ومنظروها أن يتخلصوا من المفهوم الغربي للنهضة بل الأصح أن نقول إنهم تبنوا هذا المفهوم تبنيا يكاد يكون حرفيا ولم يطرح أيّ منهم تصورا لما يريدونه لمصر أو للعرب يختلف في أي جانب أساسي عن النموذج الغربي إنني لا أنكر على الإطلاق على قيادة مصر في الخمسينات والستينات إخلاصها في الدعوة إلى الاستقلال السياسي والاقتصادي بل وتحقيقها درجة عالية من النجاح في كلا الأمرين وإنما الذى أعنيه أن هذه الدعوة إلى الاستقلال بقيت محصورة في الميدانين السياسي والاقتصادي وحدهما ولم تتسع لتشمل محاولة تقديم مفهوم مستقل للنهضة بل على العكس تماما من ذلك ، لقد أصاب هذه المحاولة الانتكاس على يد ثورة يوليو. فقبل ١٩٥٢ كان دعاة الإصلاح في مصر يفهمون الإصلاح مفهوما واسعا يشمل مختلف نواحي الحياة الاجتماعية والثقافية والخلقية وكانت قضية موقفنا من التغريب أبعد ما تكون عن الحسم ، وكان الخلاف مازال محتدما بين أنصار تبنى النموذج الغربي وأنصار العودة إلى الأصول والتمسك بالتراث مع أو من دون تطويره لملاءمة متطلبات العصر . فجاءت الثورة فحسمت الأمر لصالح التغريب أنها لم تذهب بالطبع إلى المدى الذي ذهبت إليه ثورة أتاتورك في تركيا كما أنها بالطبع لم تحسم الأمر على المستوى الفكري ولكنها حسمته على المستوى العملي بإلقاء كل ثقلها إلى جانب التغريب ، واتخذت كل ما كان في وسعها اتخاذه من إجراءات لترجيح كفته . لم يكن عبد الناصر إذن ،مهما بلغت درجة طموحه لدرجة أن يتصور أن العرب يمكن أن

يقدموا للإنسانية نموذجا مختلفا للنهضة ، كان هدفه هو المساواة مع الغرب وليس التميز عنه."

مع أخذه بالمنهجية الغربية الواضحة، يريد جلال أمين، عالم الاقتصاد، أن يعيد صلته بالتراث والعادات والتقاليد. يريد أن يطرح تساؤلا جديا حول الإنتاج سواء في الحال أو المستقبل بل يثير تساؤلا جديا حول اختيار التكنولوجيا المناسبة للصناعة الجديدة. صار من المهم لديه طرح سؤال مدى اتفاق الاقتصاد مع تقاليد المعمار الإسلامي أو ظروف البيئة أو عادات الناس. أصبح من المهم المحافظة على قواعد اللغة العربية والدين الإسلامي من خطر الإهمال أو الابتذال. صار من المهم إعادة اكتشاف الذات بدل التنمية : "عندما رفع عبد الناصر شعارات التنمية مثلا في السنوات الأولى للثورة ، لم يكن يدور بخلده أيّ مفهوم للتنمية غير مفهومها الاقتصادي الشائع في الغرب : رفع معدلات النمو وتحول مفهوم النهضة الشاملة على يديه إلى المفهوم الاقتصادي الضيق ، فأصبحت النهضة تقاس بمعدلات الادخار والاستثمار ومتوسط الدخل ، أو بعدد تلاميذ المدارس وأسرة المستشفيات إلى آخر ما تحفل به الجداول الإحصائية المألوفة التي تنشرها هيئة الأمم. امتلأت خطب عبد الناصر وقادة الثورة كما امتلأت خطب قادة الثورة في مختلف أنحاء العالم الثالث، من كوبا إلى إندونيسيا ، بما أنجزته الثورة من زيادة معدل الاستثمار ، إلى عدد الفدادين المستصلحة ، إلى عدد المصانع الجديدة إلى كمية الأسلحة الحديثة التي زود بها الجيش وقدم هذا على أنه هو معيار النجاح والفشل في تحقيق نهضة الأمة. ولم يتغير الأمر بتحول عبد الناصر إلى الفكر الذي كان ينتسب إلى فكر ماركس في مطلع الستينات من القرن العشرين. فتسميته للنظام الاشتراكي في مصر بالفكر العربي إلى كان ينتسب الى فكر ماركس "لم تضف أيّ جديد."

لا يثير عالم الاقتصاد سؤال الأدوات الاقتصادية، إنما يثير سؤال الغايات، أيّ أنه يطرح جدوى الإنتاج. فكما كان وراء العداوة للغرب الذي أبداها عبد الناصر، كان يكمن إعجاب خفي من جانبه بنمط الحياة الغربية، فإن الرفض الجذري/الإسلامي للتغريب، لدى جلال أمين، يخفي استعمالا مماثلا للمنهجيات الغربية : "لم تكن أوروبا قد شهدت ثورتها الصناعية بعدُ ثم جاءت الحملة الفرنسية وتجربة محمد على في التصنيع مواكبة الثورة الصناعية الأوروبية فهبت رياح التغريب على مصر أول مرة . ثم ازدادت حدة في عصر إسماعيل الذي اتسم من ناحية بارتفاع معدل التغير الاقتصادي والاجتماعي في مصر وواكب من ناحية أخرى بزوغ عصر الاستعمار الحديث وعلى الرغم من استمرار حركة التغريب في فترة ما بين الحربين فقد انخفض معدلها بسبب الركود الاقتصادي النسبي خلال الثلاثينات ثم اشتد ساعدها مرة أخرى في أعقاب الحرب الثانية عندما عاد الغرب إلى سابق نشاطه واشتد معدل التغير الاقتصادي والاجتماعي في مصر في سنوات الثورة وهكذا يبدو

أن مصر تدفع دائما ثمنا غاليا لنموها الاقتصادي والاجتماعي فهي بقدر ما تحدث من تغيير في هيكلها الاقتصادي وتركيبها الاجتماعي وتعيد تنظيم علاقاتها الاجتماعية كلما تورطت في مزيد من تقليد الغرب وبقدر ما يتدفق عليها الدخل بقدر ما تفقد نفسها وليس هذا نفسه إلا ثمن موقع مصر من العالم وأهميتها في المنطقة العربية . ومن ثم فإن ثورة يوليو: بكل إيجابياتها وسلبياتها لم تكن في التحليل الأخر إلا تعبيرا عن أوجه القوة والضعف لدولة تعيش هذه الحقبة من التاريخ وتحتل هذه البقعة من العالم." ومع أن نصف القرن المصري الأخير كان تغريبا، فقد كشف، مع ذلك عن "المساهمة الأساسية للخمسينات والستينات في نموالقطاع الخاص في المدى الطويل (أيّ بعد انحسار سيطرة القطاع العام) من كسر للحواجز الحديدية التي كانت تفصل بين الطبقات وفتح الباب على مصراعيه أمام " الحراك الاجتماعي " أيّ إمكانية انتقال المرء من طبقة اجتماعية إلى أخرى. كان الانقسام بين الطبقات قبل الثورة انقساما حديديا ركن في ظله الناس إلى فكرة أنه يكاد يستحيل على المرء أن يغير الطبقة التي ينتمي إليها . فإذا كنت من الطبقة الدنيا فأنت على الأرجح باق فيها أنت وأولادك وأحفادك إلى الأبد لم يعد الأمر كذلك بعد سنوات قليلة من قيام الثورة." ومع أن نصف القرن المصري الأخير كان تغريبا، فقد كشف، مع ذلك عن "المساهمة الأساسية للخمسينات والستينات" في " تقليم أظافر الطبقات العليا وما فتحته أمام الطبقات الدنيا من أبواب التعليم والتكسب والترقي الاجتماعي. أدى ذلك إلى خلق طموحات لم تكن موجودة والتطلع إلى الارتقاء على السلم الاجتماعي وتحسين نوعية الحياة على نحو لم يكن قائما من قبل وقد أدى هذا بدوره إلى حفز النشاط الخاص والحافز الفردي وتشجيعه وقد وجد أمامه المجال واسعا بعد أن بدأ انحسار سيطرة الدولة على الاقتصاد في أوائل السبعينات."

تحت عنوان "المركزية الأوروبية وتحولاتها : مسائل علم الاجتماع"، بحث عالم الاجتماع الأمريكي المعاصر، عمانوئيل فالرشتاين، في العام 1997، في إطار ISA الحلقة الدراسية الشرقية الإقليمية الأسيوية، عن "مستقبل علم الاجتماع في شرق أسيا، "والتي دارت في يومي 22-23 من شهر نوفمبر من العام 1996، في سيول، في كوريا، وقد شاركت في دعم الحلقة الرابطة الاجتماعية الكورية والرابطة الاجتماعية العالمية. وأشار عمانوئيل فالرشتاين إلى أنّ علم الاجتماع ظل منحازا لأوروبا في مراحل تاريخ مؤسساته كافة، أيّ في مراحل تاريخ الأقسام التعليمية لعلم الاجتماع ضمن أنظمة الجامعة. ولم يكن ذلك بالنسبة إليه، وبأي شكل من الأشكال، مفاجئة. فعلم الاجتماع ثمرة من ثمرات النظام العالمي الحديث، والمركزية الأوروبية جوهرية في الجغرافيا الثقافية Geoculture للعالم الحديث. علاوة على ذلك، نشأ علم اجتماع بشكل كبير في أوروبا كتركيب مؤسساتي. واستعمل عمانوئيل فالرشتاين لفظ أوروبا في ذلك البحث أكثر كتعبير ثقافي منه كتعبير خرائطي. بهذا المعنى، وفي المناقشة حول القرنين الأخيرين، أحال عمانوئيل فالرشتاين،

إلى أوروبا الغربية والى أمريكا الشمالية، بنحو أولي. فقد حدّدت مجالات علم الاجتماع في الحقيقة مكانها، بشكل كبير، وعلى الأقل، نحو العام 1945، في فرنسا، وبريطانيا العظمى، وألمانيا، وإيطاليا، والولايات المتّحدة، بخاصة. وحتى اليوم، ومع الانتشار العالمي لعلم الاجتماع كنشاط علمي متميز، تبقى الأكثرية الكبرى على مستوى العالم من العلماء الاجتماعيين الاوربيين. وقد نشأ علم الاجتماع ردّا على المسائل الأوروبية، التي وقعت في لحظة من التاريخ التي سيطرت فيها أوروبا على النظام العالمي الكامل. وكان حتميا عمليا أنّ يجري اختيار مادة البحث فيه، وتنظيره، وعلم منهجه، ونظرية معرفته كلها عكست قيود البوتقة التي نشأت ضمنها.

على أية حال، في الفترة منذ 1945، أثرت تصفية استعمار آسيا وأفريقيا، والوعي السياسي المتصاعد جدا للعالم غير الأوروبي في كل مكان، في عالم المعرفة بقدر ما أثرت في سياسة النظام العالمي. وظلت "المركزية الأوروبية" لعلم الاجتماع في موضع هجوم حادّ رئيسي منذ حوالي ثلاثين سنة على أقل تقدير. وإذا كان لعلم الاجتماع أن يحرز أيّ تقدّم في القرن الحادي والعشرين، فعليه أن يتغلب على التراث المنحاز لأوروبا الذي حرّف تحليلاته وقدرته على حل مسائل العالم المعاصر. إذا، على أية حال، كان لابد لعمانوئيل فالرشتاين أن يجري ذلك الإجراء، وكان لابد له أن يشك في تشكل المركزية الأوروبية، كما رأى عمانوئيل فالرشتاين، في المركزية الأوروبية وحشا متعدّد الرؤوس يتشكل في صور عدة. ذبح التنين بسرعة شديدة ليس أمرا هينا. في الحقيقة، إذا لم يحذر فالرشتاين وغيره، في الصراع معه، فقد ينتقد المركزية الأوروبية مستعملا، واقع الأمر، المقدمات المنحازة لأوروبا، وبذلك يعزّز قبضة المركزية الأوروبية على جماعة الباحثين، وهذا بالضبط ما وقع فيه عالم الاقتصاد المصري جلال أمين.